**قدمة**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأزكى صلوات الله وتسليماته على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، البشير النذير، والسراج المنير، الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط الله المستقيم، ومَنَّ به على المؤمنين، ليتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. ورضي الله عن آله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، وعمن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

فلم يكن في نيتي ولا في تفكيري إلى وقت قريب، أن أكتب شيئًا خاصًّا عن حياتي، وسيرتي ومسيرتي؛ وذلك لعدة أسباب:

أولًا: أن كتابة السيرة والمسيرة إنما هي من الحديث عن النفس، والحديث عن النفس لا بد أن يتضمن لونًا ما من تزكية النفس، وتمجيد الذات، وتزيينها في أعين القراء، وهو أمر مذموم شرعًا وخُلُقًا، والله تعالى يقول: {فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ} [النجم: 32]، ويتحدث عن اليهود في معرض الذم فيقول: {أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء: 49].

وقد سئل أحد الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. أي وإن كان ثناؤه في ذاته حقًّا وصدقًا. إن كلمة «أنا» حين تصدر من المخلوق: كلمة بغيضة، وأول من قالها شر الخلق: إبليس. قالها في معرض الرفض والتحدي والاستكبار، حين أمره الله بالسجود لآدم، فأبى واستكبر، وقال: {أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ} [الأعراف: 12].

كانت «أنا» الإبليسية أول كلمة في تمجيد الذات عبَّر بها مخلوق شرير عن نفسه أمام ربه. مع أنه اعتراف بخلقه له: {خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ} فما دمت مخلوقًا؛ فلم تتمرد على خالقك؟ ولماذا تعجب بنفسك، وتنسى فضل ربك؟! ولهذا حذر أهل السلوك من «العُجْب»، وعَدُّوا الإعجاب بالنفس من المهلكات، كالشح المطاع، والهوى المتبع، بل إن العامة عندنا يقولون: لا يمدح نفسه إلا إبليس. أخذوا هذا القول من القرآن.

إن «أنا» المعجبة المغرورة يجب أن تختفي فيما يقوله الدعاة إلى الله بألسنتهم، أو فيما يخطونه بأقلامهم، فليس هناك إلا «أنا» واحدة هي التي تصدر من الربوبية الخالقة والحاكمة لهذا الكون، والتي تتجلى في مثل قول الله تعالى: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ} [الأنبياء: 25] ، وقوله تعالى لنبيه وكليمه موسى: {وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ 13 إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ} [طه: 13، 14] ، والسيرة الذاتية تضطر الإنسان إلى أن يقول: أنا فعلت، وأنا قلت، وأنا سوَّيت.

ثانيًا: أني لست من زعماء السياسة، الذين يجد الناس في حياتهم «مطبات» خطيرة، أو أسرارًا رهيبة، أو مفاجآت تروعهم، وأحداثًا غريبة تذهلهم. فالواقع أن حياتي ليس فيها مفاجآت مذهلة، ولا وقائع خارقة، إنما هي حياة عادية، تمضي على سنن الله المعتادة، ومعظم ما فيها من محطات انتقال من مرحلة إلى أخرى، إنما صنعها القدر الأعلى لي، ولم أصنعها لنفسي. وأعتقد أن ما اختاره الله لي هو خير مما كنت أختاره لنفسي لو خيرت، وأحمد الله على ما انتهيت إليه، وأدعوه تعالى أن يجعل يومي خيرًا من أمسي، وغدي خيرًا من يومي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

ثالثًا: أن لم أكتب شيئًا مما مرَّ بي من أحداث في حينه، ولم أسطر أي ذكريات. وكثيرًا ما طلب مني بعض الإخوة القريبين مني أن أسجل مذكرات عن رحلاتي المختلفة في أنحاء العالم، فلم ينشرح صدري لذلك.

وعلى هذا الأساس سأعتمد فيما أكتب على ذاكرتي لا على مذكراتي، فلست مثل الإمام أبي الحسن الندوي، الذي كان يسجل كل فقرة من حياته، ثم جمعها بعد ذلك وأضاف إليها في «مسيرة الحياة» في ثلاثة أجزاء. وإذا كانت الذاكرة هي المصدر الأول، فالذاكرة قد تخون الإنسان، والحزم أن يدع الإنسان ما لا يستيقنه مائة في المائة.

هذه هي الأسباب التي أبعدت عن ذهني التفكير في كتابة مسيرة الحياة. مكتفيًا بالحوارات التي أجراها معي بعض الإخوة من الصحفيين ومن غيرهم. مثل ما أجراه معي: الأخ الدكتور حسن علي دَبَا منذ سنوات، ونشر جزءًا منه في مجلة «الأهرام العربي» في القاهرة. وقبل ذلك: الأخ الصحفي مجاهد خلف، ونشره في جريدة «الشرق القطرية» في أحد الرمضانات. وكذلك ما أخذه مني: الأخ عصام تَلِّيمة سكرتيري الخاص، ولم ينشره بعد.

ولكن إخوة أحبة ممن أعتز بهم وأقدرهم، وأشعر بخالص مودتهم طلبوا مني، وألحوا عليَّ في الطلب أن أكتب هذه المسيرة بقلمي، وزعموا أن فيها خيرًا كثيرًا للقراء، وخصوصًا للأجيال الواعدة الصاعدة من أبناء الأمة، وأنهم - على رغم فكرتي عن نفسي - يجدون في سيرتي ومسيرتي ما يستحق التسجيل والرصد والنشر، ليتخذ منه الناس عبرة، ويتخذ منه الشباب حافزًا للعمل، وباعثًا للأمل. وقالوا: إنك إذا لم تكتبها بقلمك سيحاول الآخرون أن يكتبوها، ولن تكون مثل كتابتك أنت.

وفي العام الماضي كنت ألقي محاضرة في مركز الدراسات الدولي بالقاهرة عن: «المسلمون والعولمة»، وبعد المحاضرة علق عدد من الحاضرين، وكان منهم الأخ الكريم الباحث الداعية الأديب الناقد، الأستاذ الدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب العربي في جامعة عين شمس، فناشدني الله، وشدد المناشدة أن أكتب سيرتي بيدي وقلمي، وأني بمجرد أن أمسك بالقلم سيفتح الله عليَّ، وأكد هذه الرغبة إخوة كثيرون من أقطار شتى.

وسبحان مقلِّب القلوب، فمنذ وقت قريب شرح الله صدري للكتابة، وقلت: أبدأ على بركة الله، معتمدًا على ما أستيقنه مما أتذكره، وما لم أستيقنه أستبعده أو أذكره على التشكيك، أداءً للأمانة، محاولًا أن أكون موضوعيًّا ما استطعت؛ لأني أكتب سيرة ذاتية، فكيف يكون الذاتي موضوعيًّا؟ وكيف يكون الإنسان محايدًا مع نفسه.

هذا يحتاج إلى نفس انتصرت على هواها، واستعلت على رغباتها، وفنيت عن ذاتها. وأنا لا أدعي أني وصلت إلى هذه الدرجة، ولكني سأجتهد ما استطعت أن أقول الحق، وأتحرَّى الصدق، وأكون قوامًا بالقسط شهيدًا لله ولو على نفسي، وألا يجرمني شنآن قوم على ألا أعدل، مستعينًا بالله تعالى، معتصمًا بحبله، لائذًا بجنابه، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وسيجد القارئ الكريم الجزء الأول من حياتي أكثر إسهابًا من الأجزاء الأخرى؛ لأني أتذكر هذا الجزء بتفاصيله جيدًا، بخلاف الأجزاء الأخيرة برغم قرب زمانها، ولكن الذاكرة في الأخير قد شاخت، ولم تعد كما كانت في الزمن الماضي.

كما أني أحاول أن أركز على الإيجابيات، لتحسن القدوة بها والأسوة فيها. ومع هذا لا أغفل السلبيات، بل أذكرها لنأخذ منها العبرة، ولئلا نقع في مثلها، ولكي نكون منصفين مع أنفسنا، ومع الأجيال القادمة بعدنا، فإنما نحن بشر غير معصومين، نجتهد في خدمة الإسلام، ونصرة قضاياه. وربما كان اجتهادنا خاطئًا، ومع هذا فنحن معذورون، بل مأجورون أجرًا واحدًا، كما صح في الحديث. فلا يضرنا أن نعمل ونخطئ، بل يضرنا أن نتقاعس ونقعد، وقد رفع الله الجناح عن المخطئين ولم يرفعه عن القاعدين. قال تعالى: {وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ} [الأحزاب: 5] ، لكنه سبحانه لم يعذر القاعدين المتخلفين، قال تعالى في شأن المنافقين: {وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَ‍ٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ 86 رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ} [التوبة: 86، 87].

هذا، وأرجو من الإخوة الذين كان ينبغي أن تذكر أسماؤهم في بعض المواقف: أن يسامحوني إذا أغفلتهم، فلست بمؤرخ يستقصي، ثم إني أعتمد على الذاكرة، وهي غير مأمونة على التفاصيل، كما أرجو من الإخوة الذين كانت لهم مشاركة في بعض الأحداث التي ذكرتها: أن يصححوني إذا أخطأت.

وأستغفر الله سبحانه من كل خطأ أو تجاوز أو إعجاب بالنفس، فما أنا إلا بشر يخطئ ويصيب، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان.

{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [البقرة: 286].

فهذه هي الحلقة الثانية، أو قل: هو الجزء الثاني من مذكرات ابن القرية والكُتَّاب، وملامح سيرته ومسيرته، غفر الله له.

وقد حفزني حسن استقبال الناس للجزء الأول، وحفاوتهم به: أن أبادر بكتابة الجزء الثاني، الذي أقدمه للقراء اليوم، وهو يتضمن مرحلة، أو مراحل مهمة من حياتي: مرحلة تخصص التدريس، ومرحلة السجن الحربي، وما أدراك ما السجن الحربي؟ ومرحلة ما بعد الخروج من السجن الحربي، وما فيها من رحلات بحث لها أثرها في حياتي: رحلة البحث عن الدراسات العليا... رحلة البحث عن عمل أتكسب منه... رحلة البحث عن بنت الحلال، ومرحلة الزواج وتكوين الأسرة، ومرحلة السفر إلى قطر، والعودة منها، والاعتقال في مبنى المخابرات المصرية، ولقاء صلاح نصر... والعودة إلى قطر، ومشكلتي مع المشرفين في كلية أصول الدين على رسالتي... إلخ.

وسيرى القارئ الكريم كيف وفقنا الله سبحانه، لنواجه الحياة بوردها وشوكها، وحلوها ومرها، وسرَّائها وضرَّائها. سعدنا بالورد، وحمدنا الله عليه، وصبرنا على الشوك، واحتسبنا ما أصابنا من أذاه عند الله، الذي لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يظلم مثقال ذرة. وقد روى صهيب عن النبي صصص: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له» رواه مسلم.

وقد لا يعلم كثيرون أن للابتلاء حلاوة لا يتذوقها إلا المؤمنون، وأن في الصبر لذة لا ينعم بها إلا العارفون {ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ} (البقرة: 156) . لقد عانينا ما عانينا في أتون السجن الحربي، وعانينا ما عانينا بعد خروجنا في سبيل كسب العيش الحلال، وقد سدوا في وجوهنا كل الأبواب، ولكن هناك بابًا لا يستطيعون أن يغلقوه أبدًا، وهو باب فضل الله تعالى ورحمته، الذي لا يسد أبدًا في وجه أحد.

أخي القارئ، هذه سيرتي عرضتها عليك كما وقعت بدون تكلف، فما رأيته من خير وفضل وحسن عمل، فهو من صنع الله لي، الذي غمرني بإحسانه وعطائه من قرني إلى قدمي، فالحمد لله الذي هداني لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسأله تعالى أن يجعل قولي وعملي ونيتي خالصة لوجهه.

وما وجدت فيها من قصور أو تقصير، أو شرود عن الحق، فهو مني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه، ولا أقول إلا ما قالت امرأة العزيز: {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ} (يوسف: 53) ، وربما كان بيني وبين الله جل جلاله معاصي وذنوب أخفيتها، طمعًا في عفو ربي، وليس من اللائق أن يعرض المرء سوءاته للناس، ويسعنا أن نقول ما قال أبونا آدم وأمنا حواء: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ} (الأعراف: 23)

هذا، ولم أقصد في هذه المذكرات أن أسيء إلى أحد كائنًا من كان، حتى من ظلمني وأساء إليَّ، أنا متصدق عليه بما نال مني، ولا أعادي إلا من عادى الإسلام وحاربه، وكل الناس بعد ذلك إخواني: إما في الدين، أو في الوطن، أو في الإنسانية.

ولا أريد أن أستجلب عداوة أحد لي، بل أريد من الناس - كل الناس - أن يدعوا لي، وأن يسامحوني إذا قصرت أو أخطأت أو تهاونت في حقهم. فما أحوجني إلى الدعاء والمسامحة وأنا في السابعة والسبعين من عمري، داعيًا الله تعالى بالدعاء المأثور: اللهم اجعل خير عمري أواخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك.

{رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ 8 رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ} (آل عمران: 8، 9) .

فهذا هو الجزء الثالث من مذكرات «ابن القرية والكتاب» وملامح سيرته ومسيرته، التي أسأل الله تعالى  أن يجعل فيها دروسًا وعبرًا، لمن قرأها، موصيًا قارئي: أن يقتبس مما يراه فيها من خير، وأن يتجنب ما يلحظه من عثرات، ويلتمس لصاحهبا المعذرة، ويدعو له بالمغفرة.

وأود أن أنبه هنا على أن ما كان من جهد وعطاء يجده القارئ في هذه السيرة، فالفضل في ذلك يرجع إلى واهبه سبحانه، ولا أقول إلا ما قال سليمان عليه السلام حين أحضر إليه عرش بلقيس من اليمن - وهو في فلسطين - قبل أن يرتد إليه طرفه: {قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ} [النمل: 40].

وما كان في هذه السيرة من قصور أو تقصير، أو خطل في الرأي والتفسير، أو شرود في السلوك والعمل، فمرده إلى نفسي، ولا أقول إلا ما قالت امرأة العزيز: {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ} [يوسف: 53] ، ولا يسعني إلا ما وسع أبانا آدم وأمَّنا حواء حينما قالا: {رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ} [الأعراف: 23].

وتشمل هذه المذكرات من سنة (1965م)، إلى سنة (1978م) ، وقد وقعت فيها أحداث مهمة على المستوى الشخصي، وأحداث جسام على مستوى الأمة. فعلى المستوى الشخصي: رزقت أبنائي الذكور الثلاثة: محمدًا، وعبد الرحمن، وأسامة، ودخلت بناتي - كما دخل أبنائي بعد - المدرسة، وظهر تفوق الجميع من الصغر، بحمد الله.

وحصلت على الدكتوراه من الأزهر بعد أن كنت أيست منها، وانتقلت من المعهد الديني إلى جامعة قطر، وبدأت أخرج من عزلتي في قطر، لأنطلق إلى آفاق العالم في قارات الدنيا، مدعوًّا من الجامعات والجمعيات والمؤسسات، ومشاركًا في الندوات والمؤتمرات.

وعلى مستوى الأمة: حدثت نكبة حزيران «يونيو» (1967م)، واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة والقنيطرة، وحدث انقلاب النميري في السودان، ومحاولة إحراق المسجد الأقصى، وقامت ثورة القذافي (1969م)، وحدثت مأساة أيلول الأسود، ومات جمال عبد الناصر، وتولى السادات الحكم (1970م)، وقضى على مراكز القوى (1971م)، ووقعت حرب العاشر من رمضان (1393هـ)، (6 أكتوبر 1973م)، التي انتصر فيها جيش مصر على إسرائيل، وعبر القناة، واجتاز خط برليف، وإن لم يكتمل له النصر، بما عرف بقصة «الثغرة» وما أعقبها من أحداث. واغتيل الملك فيصل بن عبد العزيز، وزار السادات إسرائيل في سنة (1977م)، ووقّع اتفاقية كامب ديفيد (1978م).

وبدأت الصحوة الإسلامية في الانطلاق والظهور، وخصوصًا بين الشباب والفتيات، وبدأت مسيرة البنوك الإسلامية، وبدأ الكتاب الإسلامي يكتسح سوق الكتب. أحداث كبرى وقعت في تلك المرحلة، سيجدها القارئ في مواضعها عند حديثنا عنها إن شاء الله.

وقد رتبت هذه المرحلة من حياتي على نظام «الحوليات» الذي اتبعه مؤرخونا الإسلاميون الكبار، مثل: الطبري، وابن الأثير، وابن كثير، وغيرهم، وإن كنت قد اخترت أن يكون ترتيبها وفق «السنوات الدراسية» لسهولتها عليَّ، وتمايزها عندي بوضوح.

وقد عرضت هذا الجزء من المذكرات «ابن القرية والكتاب» على عدد من الإخوة والأصدقاء من أهل الفكر والعلم، ليبدوا ملاحظاتهم عليها، ويشيروا عليَّ بما يرونه، فالمؤمن مرآة أخيه، وليس هناك أحد أكبر من أن يُنصح، ولا أحد أصغر من أن يَنصح، ولكن أصدقائي هؤلاء اختلفوا عليَّ كما هو شأن البشر عادة في الأمور الاجتهادية، فمنهم: «المستشار: طارق البشري، والأستاذ فهمي هويدي» من رأى أنني في قسم منها تحولت من كاتب مذكرات إلى مؤرخ، كما في حديثي عن نكبة (1967م)، وعن عبد الناصر، وعن الهضيبي، وعن سيد قطب، ونحوها، ورأوا أن الأولى أن تُحذف هذه الفقرات الطوال من المذكرات، لتوضع في مكان آخر، في كتاب آخر، أو تختصر اختصارًا شديدًا.

ومن أصدقائي من رأى رأيًا آخر «د. أحمد العسال، ود. عبد العظيم الديب، ود. محمد سليم العوا، وآخرين»، وهو أن تبقى هذه التعليقات - وإن طالت - على الأشخاص والأحداث ذات الأهمية، باعتبارها تُمثل رؤية شخص عايش هذه الوقائع، وانفعل بها، وكان لها وقعها وأثرها على حياته وعلى مسيرته، فهو شاهد على عصره، ينتظر الناس شهادته كما قال الله تعالى: {وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ} [المعارج: 33]، وقال: {وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ} [الطلاق: 2]، وقال: {وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ} [البقرة: 283].

وليس المقصود من هذه المذكرات: مجرد الأحداث الشخصية والعائلية الروتينية، فهذه قد لا تهم الناس كثيرًا؛ وإن أهمتهم، فإن أهم منها تفاعل صاحب السيرة مع عصره ووقائعه وأحداثه الكبرى، ورأيه فيها، فلعل في ذلك ذكرى لمن كان له قلب، وعبرة لمن كان له عقل.

وقد أردت أن أجس نبض جمهور القراء، فسألت عددًا منهم عن رأيه في هذا الخلاف، فكان أكثر من (90%) مع إبقاء ما نشر على ما هو عليه. والكاتب إنما يكتب لقرائه قبل كل شيء. ومع هذا، قد اجتهدت أن أوفق بين الرأيين، فحذفت بعض أشياء مما اعتبره الأصدقاء تاريخًا وليس بسيرة، وقد رأيتها غير ضرورية، وأبقيت الأشياء الأساسية التي لا تمس جوهر رؤيتي للمواقف والأشخاص والأفكار.

ورجّح لي هذا: أن هذه المذكرات قد نشرت في صحيفة «الوطن» في قطر قبل ذلك في رمضان (1424هـ)، كما نشرت في مصر في صحيفة «آفاق عربية»، وفي موقع إسلامي أون لاين نت. وقد أغضبَ بعضُ ما كتبته عن عبد الناصر: بعض الناصريين والقوميين، وعلقوا على ذلك وأطالوا التعليق. كما أغضب بعض ما كتبته عن سيد قطب: بعض الإسلاميين! وقد أفضى الجميع إلى ما قدم، وما أردت بما كتبته عن هذا أو ذاك: إرضاء أحد ولا إغضابه. إنما أردت بيان الحقيقة كما أراها، وفاءً بما أخذه الله على أهل العلم أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، وقديمًا قالوا: رضا الناس غاية لا تدرك، وقال الشاعر:

|  |  |
| --- | --- |
| ومن في الناس يُرضي كل نفس   |      وبين هوى النفوس مدى بعيد؟   |
|    |  |

ولهذا لم يعد مجديًا: أن أحذف هذه الشهادة، أو هذا التعليق، بعد نشره وإذاعته، على نطاق واسع، وحسبي أني قلت كلمتي مبتغيًا بها وجه الله، وبيان الحقيقة «وإنما لكل امرئ ما نوى» ، وليس هناك من قانون ملزم لكتابة المذكرات، بحيث يلام من خرج عليه، وإنما ذلك يختلف باختلاف كل كاتب وموقفه وظروفه.

والحقيقة أني لم أقلد أحدًا فيما كتبت، بل تركت قلمي ليخط ما خط على سجيتي دون تكلف ولا افتعال، فإن كان في ذلك خير فذلك فضل الله عليَّ {قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ} [يونس: 58]، وإن كان غير ذلك؛ فقد اجتهدت فيما صنعت، ولكل مجتهد نصيب، ومن روائع ديننا: أنه لا يحرم المجتهد المخطئ من الأجر، {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا} [البقرة: 286]، على أن الأمر ليس فيه صواب وخطأ، ولكن مألون وغير مألوف.

وختامًا: أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا صالحًا، ويجعله لوجهه خالصًا، ويجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه. آمين.

هذا هو الجزء الرابع من ملامح سيرة ومسيرة «ابن القرية والكتاب»، وهو يشمل بضعة عشر عاما «حوالي 18 عامًا» من هذه السيرة والمسيرة: وهي سنوات حافلة بالأحداث على المستوى الشخصي، والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي:

على المستوى الشخصي تخرج كل أبنائي، وتزوج كل بناتي، وأمسيت جدًّا لعدد من الأحفاد والحفيدات كلهم من بناتي، وعينت عميدًا لكلية الشريعة ومديرًا لمركز بحوث السنة والسيرة. ونجحت في الدعوة إلى تأسيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، وعملت رئيسًا لهيئة الرقابة الشرعية لعدد من المصارف الإسلامية، كما اخترت عضوًا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وعضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن «مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي» وعضو مجلس أمناء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وعضو مجلس أمناء منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم، وغيرها، كما حصلت في هذه الفترة على بعض الجوائز العالمية.

وعلى المستوى العربي والإسلامي، انتصرت ثورة الإمام الخميني في إيران، وقامت الحرب العراقية الإيرانية، ووقع غزو صدام حسين للكويت، وانتصرت ثورة الإنقاذ في السودان، وقام أول حزب سياسي إسلامي رسميَّا في الجزائر «حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ»، وانتصر المجاهدون الأفغان على الاتحاد السوفييتي، وكان ذلك من أسباب انهيار هذا الكيان الكبير، ولكن الأفغان الذين انتصروا على السوفييت لم ينتصروا على أنفسهم، وكما قلت لهم: لقد أحسنتم أن تموتوا في سبيل الله، ولم تحسنوا أن تعيشوا معًا في سبيل الله!

وفيها بدأت مسيرة الدعوة إلى السلام أو الاستسلام مع إسرائيل، ابتداء بـ «كامب ديفيد» وانتهاء بأوسلو، وبدأ كثير من العرب يقتربون - سرًّا أو علنًا - مع إسرائيل.

وفيها انتشرت جماعات «الجهاد» التي ترى فرضية استخدام العنف في مقاومة الحكام، واغتيل الرئيس المصري أنور السادات على يد إحداها.

وفيها انطلقت شرارة الانتفاضة الأولى في فلسطين، وظهور أطفال الحجارة، الذين يقاومون دبابات العدو مصفّحاته بقذف الحصا والحجار.

وفيها أُسِّست حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في فلسطين، مولودة من رحم الإخوان المسلمين في فلسطين، كما أسست ذراعها العسكري «كتائب عز الدين القسام».

واشتدّ ساعد الصحوة الإسلامية في الجزائر، واتَّسع نطاقها، واكتسح الإسلاميون فيها الانتخابات التشريعية، وعُطِّلت نتائجها، وقبض العسكر على أزمّة الحكم، وكانت فتنة عارمة في البلاد بين الحكومة العسكرية والمسلحين الإسلاميين.

وتفوقت في تركيا الحركة الإسلامية التي يقودها الرجل الأكاديمي المصلح المناضل د. نجم الدين أربكان، لينقل المسيرة إلى مرحلة جديدة، بعقلية جديدة.

وفي باكستان ظهر الجنرال ضياء الحق، القائد الذي أعلن ولاءه للإسلام وشريعته وقيمه، فأبت الصليبية الغربية إلا أن تخطط لاغتياله. وتوفي الإمام ابو الأعلى المودودي، وخَلَفه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، قادوا مسيرة الدعوة وسط التيارات الهائجة والأمواج المتلاطمة، كما انتشرت دعوة الإخوان المسلمين في نحو سبعين قطرًا في أنحاء العالم.

ونشطت الدعوة السلفية في أقطار شتى، يسندها النفوذ السعودي والمال السعودي، ونشاط الدعاة السعوديين، وغير السعوديين، وإن كانت في داخلها قد انقسمت إلى اتجاهات مختلفة من ناحية تبني العنف أو عدمه، ومن ناحية التعامل مع الآخر.

وعلى المستوى العالمي، انتهزت أمريكا فرصة غزو الكويت لتقود تحالفًا دوليًّا ضد العراق، لتضرب أقوى جيش في المنطقة يهدد إسرائيل، بعد أن أخرجت جيش مصر من المعركة نهائيا باتفاقية «كامب ديفيد» ، ودخلت أمريكا المنطقة عسكريًّا وسياسيًّا بطلب حكامها، لتستقر فيها ولا تخرج منها، إلا أن يشاء ربي شيئًا.

وقام الاتحاد الأوربي وأصبح حقيقة واقعة، على حين بقى العرب والمسلمون شراذم، وقد تفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون.

وقد تميزت هذه السنوات بأمرين لهما أهمية قصوى في حياتي:

الأول: الانتشار الكبير لي في أنحاء العالم في الشرق والغرب، وزيارة كل قارات العالم حتى أستراليا، وأمريكا الجنوبية، حتى سمّاني بعض الزملاء في ذلك الوقت: الشيخ الطائر! والحقيقة أني كنت دائم الأسفار والتجوال من بلد إلى آخر، فلا أكاد يستقبلني أهلي إلا وهم يستعدون لوداعي.

والثاني: ظهور المد الإسلامي أو الصحوة الإسلامية بقوة في تلك المرحلة، وقد كنت أعتبر هذه الصحوة جزءًا مني، كأنما هي ولدي وفلذة كبدي، وكنت حريصًا أبلغ الحرص على حسن نمائها: إيمانيًّا وفكريًّا وخلقيًّا، وألا تُغذَّى بأغذية ضارة أو ملوثة وأن يقود زمامها من يملكون الحكمة والبصيرة، إلى جانب التقوى والأمانة، وكنت أقول دائمًا: أخشى على الصحوة أن تتآكل من الداخل قبل أن تُضْرَب من الخارج.

ومن خلال هذه المذكرات سيمرّ القارئ بمعظم أحداث العصر في منطقتنا العربية والإسلامية، بحكم أني أعيش في قلب هذه المنطقة، وقلب هذه الأحداث، وقد قدر لي في هذه المرحلة أن أتفاءل بها ومعها متأثرًا ومؤثرًا، ولذلك يصعب أن تفصل ما هو شخصي عما هو عام، فقد كنا نعيش هموم الأمة، وآلامها وآمالها، عليها نمسي ونصبح، وننام ونستيقظ، ونسكن ونتحرك.

وأريد أن أستسمح القارئ الكريم لهذا الجزء من المذكرات، إذا وجد خطأ في بعض التواريخ، فكل اعتمادي فيها على الذاكرة، ولم أكتب فيها صفحة واحدة إلا ما كان من رسائل أو نحو ذلك، والذاكرة تصيب وتخطئ، فكيف بها إذا شاخت؟

كانت الذاكرة بالنسبة لأيام الصبا والشباب والكهولة: حديدية، لا يكاد يتفلّت منها شيء، أو يلتبس عليها شيء، أما في عهد الشيخوخة، فمهما تكن الذاكرة قوية، فلابد من أن يفوتها شيء، أو تختلط عليها بعض الأشياء، ولكن هذا في التفصيلات والجزئيات لا في القضايا الكلية، والأمور الجوهرية. والحمد لله رب العالمين.

هذا وكنت قد نشرت هذا الجزء من المذكرات في بعض الصحف في قطر والجزائر والمغرب في شهر رمضان 1429هـ، ثم اكتشفت أن هناك أحداثًا مهمة وقعت في تلك الفترة كنت نسيتها، فلم أسجّلها، ولم أعلّق عليها، كما حذفت بعض الأحداث كنت ذكرتها قبل أوانها، وإنما أوانها في الجزء الخامس إن شاء الله، كما عثرت على وثائق ذات قيمة كانت ضائعة مني، فكان لابد لي من أن أضيفها.

هذا، وقد تحدثت بعض الصحف عن مذكراتي في الأجزاء الثلاثة التي نشرت وأثنت عليها، ولكنها أشارت إلى أني أهتم بالإيجابيات، ولا أذكر السلبيات.

ولا أدري: ماذا تعنى تماما بـ «السلبيات»؟ أتعني: أن المرء إذا زلّت قدمه يوما، وارتكب معصية استتر بها، ولم يعرفها الناس: يكشف ستر الله عليه، ويقول للناس: لقد فعلت كذا وكذا على طريقة اعترافات الغربيين؟! وماذا يستفيد الناس من وراء ذلك إلا تهوين المعصية على الخلق!

على أن تربيتنا الإسلامية تمنعنا من ذلك، ففي الحديث النبوي المتفق عليه: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله تعالى».

أما الخطأ في الآراء والمواقف الفكرية والسياسية، فنحن نؤمن بأن لا عصمة لبشر بعد رسول الله صصص، وليس في العلم كبير. وكل عالم يؤخذ منه ويرد عليه، وما اجتهد فيه  فأصاب فله أجران، وما أخطأ فيه فله أجر واحد. وهذا من روائع الإسلام.

وأما السلبيات التي يجب كشفها ونقدها حقا أما الخطأ في الآراء والمواقف الفكرية والسياسية، فنحن نؤمن بأن لا عصمة لبشر بعد رسول الله صصص، وليس في العلم كبير، وكل عالم يؤخذ منه ويرد عليه، وما اجتهد فيه فأصاب فله أجران، وما أخطأ فيه فله أجر واحد، وهذا من روائع الإسلام حقا، حقا، فهي ما يتعلق بالجماعة والأمة، وهو ما أعتقد أني قمت به في حدود معلوماتي وقدراتي، وربما أصابني في ذلك ما أصابني، ولا سيما من المتعصبين للأشخاص والأفكار، سواء من الإسلاميين أم من القوميين.

ولابد للمرء من أن يوطِّن نفسه على احتمال مثل هذه الانتقادات - أو الاتهامات - مادام يؤمن بأنه يقول كلمة الحق كما يراها، وليس عليه أن يرضي جميع الاتجاهات، وجميع أصناف الناس، فهذه غاية لا تدرك، وأمنية لا تنال، وحسب المؤمن أن يرضي ربه، وإن سخط عليه الساخطون.

{رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10].